مقدمـــــــة

الشعب الأمريكى لم يمر بتجربة الثورة إلا مرة واحدة فى حياته، منذ ما يقترب من قرنين وربع من الزمان، وبعدها استقرت به الأمور على ما هى عليه حتى الآن،مما جعل مزاجه العام يميل إلى الأسلوب المحافظ، الذى لا يحبذ التغيير والتبدل، وخاصة أن الثورة الأمريكية كانت من طراز فريد فى تاريخ الثورات بحيث لم تأخذ شكل الانقلاب الجذرى، الذى يقلب الأمور رأسًا على عقب مثل الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية. فلم تكن ثورة على أوضاع داخلية، بل كانت ثورة تحرير من استعمار أجنبى. وقد ترسخ فى وجدان الشعب الأمريكى اعتزاز خفى أو علنى لقدرته على التخلص من الاستعمار البريطانى، عندما كانت الإمبراطورية البريطانية فى أوج سطوتها وجبروتها. ولعل هذا هو السبب فى عدم ميله إلى أن يصبح هونفسه إمبراطورية فى حد ذاته، عندما صار أقوى دولة فى العالم بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ومعه كتلة الدول الشيوعية، فلا يعقل أن يتحول إلى إمبراطورية، وهوالذى بدأ وجوده السياسى على خريطة العالم بالتحرر من أعتى إمبراطورية كانت فى ذلك الزمان. ولذلك لم تجد دعوة جماعة المحافظين الجدد فى مطلع القرن الحادى والعشرين، استجابة فى نفوس الأمريكيين عندما أغرتهم بكل الوسائل السياسية والاقتصادية والإعلامية والعسكرية والثقافية، بالعمل علـى إقامـــة الإمبراطوريـــة الأمريكية التـى ستخلف كـــل الإمبراطوريات السابقة.

استمرت الثورة الأمريكية عقدًا كامـلاً مـن١٧٧٣ إلى ١٧٨٣و فتركت تراثًا لا ينمحي فى التاريخ الأمريكى، الذى أثبت عمليًا أن قيام الإمبراطوريات بكل ما تملكه من جبروت وسطوة وبطش بالشعوب الواقعة تحت رحمتها، أمر مناف للعدالة والكرامة الإنسانية فقد ولد الإنسان حرًا وكذلك الشعب الذى ينتمى إليه، وليس من حق أى إنسان آخر أو شعب آخر أن يجعله تابعًا ذليلاً يدور فى فلكه؛ فالثورة الأمريكية هي ثورة ١٣ ولاية إبان حكم الملك جورج الثالث، وهذه الولايات هي نواة ما عرف بعد استقلالها باسم الولايات المتحدة الأمريكية والتى تضاعف عددها مع الزمن حتى بلغت الآن خمسين ولاية.

بدأت مقدمات الثورة قبل عام ١٧٧٣ بأسباب اقتصادية وسياسية أهمها القوانين الإنجليزية التى ألزمت الولايات بنقل تجارتها على سفن إنجليزية، وحرمت عليها استيراد بضائع تنتج مثيلاتها فى إنجلترا، وإلا يجب أن يكون التبادل التجارى عن طريق وسطاء من الإنجليز، كما حرمت عليها بيع عدد من منتجاتها كالتبغ لغير

إنجلترا، بالإضافة إلى الضرائب التى كان يفرضها البرلمان الإنجليزى فى لندن دون موافقة الولايات كضريبة التمغة والشاي. وكان من العوامل التي ساعدت على قيام الثورة الأمريكية تقلص خطر الاستعمار الفرنسى بعد هزائمه المتعددة، مما أثبت قابلية الإمبراطوريات للهزيمة، وكذلك تقلص خطر الهنود الحمر الذين كسر البيض الأنجلوساكسون شوكتهم إلى حد كبير، فضلاً عن أن الولايات شرعت فى تشكيل قواتها العسكرية الخاصة.

بدأ الصراع المكشوف فى ولاية ماساتشوسيتس عام ١٧٧٣، حين ألقيت شحنة من الشاى الذى كانت الحكومة الإنجليزية تحتكره فى البحر، ثم تجريد الحامية الإنجليزية لمدينة بوسطن من أسلحتها. ولم تقف الحكومة الإنجليزية مكتوفة الأيدى فى مواجهة هذا التحدي ، فردت بإلغاء دستور الولاية وتقديم المتهمين أمام محاكم إنجليزية. ومنذ ذلك التاريخ إلى أن تم عقد الصلح، مرت الثورة الأمريكية بمرحلتين: الأولى مرحلة التكتل والاستعداد، والثانية مرحلة الحرب بحيث كانت البوتقة التى انصهرت فيها الشخصية الأمريكية وقدرتها على التصدى لأعتى إمبراطورية فى ذلك العصر.

كانت مدينة فيلادلفيا عاصمة الثورة، عقدت بها ثلاثة مؤتمرات عرفت باسمها، ففى ديسمبر ١٧٧٤ عقد المؤتمر الأول، وفيه أعلنت مقاطعة البضائع الإنجليزية، كما أعلن حق الولايات فى إصدار القوانين، فى حين استعد سكان الولايات للمعركة المنتظرة،ثم عقد المؤتمر الثانى فى مايو ١٧٧٥ وفيه أعلن اختيار جورج واشنطن قائدًا عامًا، وعقد المؤتمر الثالث فى يوليو ١٧٧٦، وفيه أذيعت وثيقة الاستقلال وإعلان حقوق الإنسان، واستهلت الوثيقة بمايلى: « نحن ممثلى الولايات المتحدة الأمريكية المجتمعين على هيئة مؤتمر عام، نعلن وكلنا إيمان باسم شعب الولايات وتفويضه أن هذه الولايات أصبحت حرة مستقلة، وقد تعهدنا بأن نصون هذا الاستقلال بحياتنا وأموالنا وشرفنا».

بدأت العمليات الحربية التى كانت بمثابة المرحلة الأخيرة من الثورة، منذ منتصف ١٧٧٦ حتى أكتوبر ١٧٨١، وتميزت بمعركتين حاسمتين:

الأولى عند ساراتوجا وانتهت باستسلام القائد الإنجليزى برجوين فى أكتوبر ١٧٧٧، والثانية: عند يوركتون وانتهت باستسلام القائد الإنجليزى كورنواليس فى أكتوبر ١٧٨١. وفى عام ١٧٨٣ عقد الصلح فى باريس بعد أن اعترفت إنجلترا باستقلال الولايات. وانتهت بذلك أول وآخر تجربة ثورية مفصلية ومحورية فى تاريخ الولايات المتحدة، وما مرت به بعد ذلك كان بمثابة تيارًا ثوريًا أوحتى ثائرًا ورافضًا

لبعض الأوضاع غير المقبولة، ولكنه لم يكن يهدف إلى تغيير جذرى على الإطلاق. فقد ظلت فى إطار المظاهرات والاعتصامات والاضطرابات التقليدية، وفى أوساط معينة مثل التجميعات العمالية أو الطلابية أو الشبابية أو الأقليات المهمشة أو المضطهدة، وفى مقدمتها السود من أصول أفريقية. ونظرًا للتحالفات الوطيدة بين أصحاب الشركات والمؤسسات العملاقة بل والجامعات، وبين رجال الأمن الداخلى من شرطة ومباحث ومخابرات وعملاء وجواسيس على تحركات المواطنين، فإن حركات المتظاهرين أو الرافضين أو المتمردين كانت تسحق بمنتهى القوة والبطش، حتى لو أدى الأمر إلى بعض المعارك الدموية التى يسقط فيها قتلى برصاص رجال السلطة والأمن المتواطئين مع رجال المجمع الصناعى العسكرى. ولذلك كانت الأمور سرعان ما تعود إلى أوضاعها الأولى، وخاصة أن المتمردين أوالرافضين كانوا ثائرين ضد أوضاع ظالمة، ولكنهم لم يكونوا ثوريين من ذوى الأيديولوجيا التى تعمل بنفس طويل نحو تحقيق أهدافها الاستراتيجية. لكن هذا لم يمنع من سريان تيار ثورى فى السياسة الأمريكية، حمل لواءه مفكرون من طراز رفيع من الذين ضمهم هذا الكتاب، والذين بدوا وكأنهم يعزفون سيمفونية واحدة، وإن كانت بتنويعات مختلفة مثل حركات الثورة أو الرفض أو الشجب أو العنف خاصة الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أو الإمبراطورية الأمريكية ومخططات المحافظين الجدد أو الإرهاب بأنواعه أو الدولة المارقة وغيرها من التنويعات المحورية.

يبدأ الكتاب بناعوم تشومسكى كمفكر رفيع المستوى وفريد من نوعه بين المفكرين الثائرين ضد التيار العام فى الفكر الأمريكى المعاصر. فهو عالم مشهور ورائد فى علم اللغويات الإنجليزية الحديثة، وأضاف نظريات غيرت من أساليب تدريس اللغة الإنجليزية وتحليل بنيتها فى شتى أرجاء العالم حتى فى إنجلترا نفسها. وبعد ذلك خاض فى غمار الدراسات السياسية سواء على مستوى التنظير أو التطبيق، فأثبت أنه فى طليعة المفكرين والكتاب السياسيين على مستوى العالم رغم أن كل كتاباته وآرائه معادية للصهيونية ولعدوانية إسرائيل وأيضًا لغطرسة القوة الأمريكية، وفى الوقت نفسه فهومن أعظم المدافعين عن القضية الفلسطينية بصفة خاصة وحقوق الإنسان بصفة عامة. وقد اتسمت كل كتبه وأحاديثه بمساندة الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية لكل البشر. فهو يهودى الديانة، ولكن فكره الليبرالى نأى به عن التعصب وضيق الأفق.

والفكرة المحورية التى تدور حولها معظم كتابات تشومسكى، تثبت أن تشومسكى لم يجد نموذجًا للدولة المارقة أوضح من الولايات المتحدة الأمريكية، لأنها

تطبق دائمًا المعايير المزدوجة، وتتحدث بلسانين، أولهما أخلاقى عن قيم الحرية والعدالة والمساواة والسلام، وثانيهما انتهازى براجماتى يمارس العنف المغرض، ويشن الحروب الدامية غير المبررة أخلاقيًا، ويرتكب الجرائم والفظائع والمذابح، باسم الدفاع عن قيم الحرية والديمقراطية، والمحصلة النهائية هى أن الولايات المتحدة دولة مارقة ومضادة لكل القيم الإنسانية التى عاش على هديها البشر عبر العصور. وهى نتيجة لهذه المعايير المزدوجة والممارسات الانتهازية، تجلب للشعب الأمريكى نفسه عداوات الآخرين وكراهيتهم، وتستفزهم فيقابلون عنفها بعنف، وفى النهاية تعرض الأمن القومى الأمريكى للاعتداءات والدمار.

وعندما يتنبأ تشومسكى بقرب نهاية العالم فإنه لا يرجم بالغيب؛ لأن منطق الصارم ينهض على أساس علمى راسخ. فقد أصبح العالم بأسره ريشة فى مهب الريح، نتيجة المبالغة الأمريكية فى ترسيخ وتوسيع مساحة النزعة العسكرية، والاعتماد على القوة المسلحة، سواء عن طريق ترسانتها النووية، أو عن طريق عسكرة الفضاء، أو عن طريق تلويث البيئة التى تتحمل أمريكا المسئولية الرئيسية عن الأضرار والكوارث التى ألمت بها،وذلك باعتبارها أكبر دولة صناعية وأكثردولة استخدامًا للمحروقات، والمتسبب الأول فى انبعاث الغازات وبالتالى حدوث الاحتباس الحرارى الذى أصاب مناخ الأرض بالفيضانات والجفاف الذى يصل إلى مستوى التصحير وكل أنواع التلوث التي ولدت أمراضًا وأوبئة مميتة فى أحيان كثيرة، وتنتشر فى أرجاء المعمورة انتشار النار فى الهشيم. كل هذه الكوارث والنكبات ناتجة عن قوة دفع غاشمة من الولايات المتحدة التي تتبع سياسة طائشة متعجرفة، تظهرها وكأنها فقدت صوابها. وينذر تشومسكى البشر بأنه من الحماقة أن يصرالبشر على أن نهاية العالم هى فكرة عابرة تمر بذهن الناس مر الكرام ليبتلعها النسيان،إذ إن العالم هوسلسلة متصلة من الأسباب والنتائج، وإذا ظلت الأسباب والدوافع تحركها دولة عظمى فقدت صوابها، فقل على العالم السلام إن آجلاً أو عاجلاً.

وناعوم تشومسكى له رفيق آخر على درب النقد السياسى وهو الأديب والناقد الأمريكى الكبير جور فيدال الذى مارس كتابة كل الأنواع الأدبية، فأبدع أشعارًا زاخرة بالتأمل العميق والفكر الثاقب الذى يمس الحياة الإنسانية فى صميمها، كما ألف مجموعة من المسرحيات سواء للعرض على خشبة المسرح أو على شاشة التليفزيون، ونشرت عام ١٩٥٦. وركزت أعماله المسرحية والروائية والنقدية على الرؤية النقدية والتحليلية لسلبيات المجتمع والعصر. ويبدو أن المضمون السياسى الساخن والمثير الذى تبلور فى بعض رواياته ومسرحياته الناجحة، كان الباب الواسع

الذى دخل منه إلى عالم الممارسة السياسية، فخاض الانتخابات التشريعية عن ولاية نيويورك عام ١٩٦١ ، لكنه لم يفز بالمنصب،فأدرك أن الكتابة السياسية أعمق وأطول أثرًا من الممارسة السياسية المرتهنة بفترة زمنية محدودة، وطالما أن الله قد منحه موهبة الكتابة فى أنواع متعددة من التعبير الفكرى والفنى، ففى إمكانه أن يتفوق على أقرانه من الكتاب السياسيين المحترفين الذين لا يملكون أدوات الإبداع الأدبى والفنى من سخرية وتلميح وإيقاع وتهكم وفكاهة وبلاغة وانفعال وإثارة وتجريب، وغير ذلك من المتع الأسلوبية.

من هنا كانت قدرة فيدال على الوصول إلى أكبر قطاعات ممكنة سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها. وبالطبع لا يتسع المقام فى هذا الكتاب لمجرد الإحاطة بكتب فيدال التى زادت على الخمسين ، لكن ما يهم هوأحد كتبه الذى أثار ضجة مستمدة من حجم الضجة التى أثارتها أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، والتى كانت مضمون الكتاب، الذى قدمها من منظور لابد أن يصيب من يقرأه بالذهول لأنه ينطوى على أدلة واثباتات وقرائن لا يمكن تكذيبها أو حتى التهوين من شأنها . وقد صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٢ بعنوان: «الحلم بالحرب: الدم مقابل البترول وعصبة تشيني – بوش». وإذا كان فيدال قد اشتهر بالكتب المثيرة للجدل على أوسع نطاق؛ لأنه لا يرضى إلا بالرؤى الجديدة والانطلاقات الثورية التى ضمها فى كتابه الشهير «هبوط وسقوط الإمبراطورية الأمريكية»، لكن ضجة كتاب «الحلم بالحرب» كان أشد وطأة لأنه تحدى أبواق الإعلام المأجور كلها، عندما أضاء الجانب المظلم من أحداث الحادى عشر من سبتمبر كشهادة، كان عليه أن يقدمها للتاريخ.

ومن الواضح أن المضامين والموضوعات التى ألحت على ذهن هؤلاء الكتاب والمفكرين الذين شكلوا التيار الثورى فى السياسة الأمريكية فى هذا الكتاب، جعلت منهم عازفين فى أوركسترا واحد؛ مما منح الكتاب وحدة فكرية برغم تخصيص فصل مستقل لكل كاتب منهم. وكان فى مقدمة هذه المضامين: الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، والإمبراطورية الأمريكية، والمحافظون الجدد، والدولة المارقة، والعولمة الاقتصادية وغيرها. وكان التداخل فيما بين هذه المضامين قد أكد إلحاحها وسريانها فى التوجهات الفكرية، التى حكمت فصول الكتاب، وجنبتها أن تكون مجرد مقالات متناثرة. فإذا كان تشومسكى مثلاً قد تناول مضمون الدولة المارقة في كتابه «الدول المارقة: حكم القوة في الشئون العالمية» الصادر عام ٢٠٠٠، فقد تناوله وليم بلام عام ٢٠٠٢ في كتابه «الدولة المارقة: دليل إلى الدولة العظمى في العالم» من زاوية جديدة تمثل اضافة إلي منظور تشومكي..

وفى العام التالى ٢٠٠٣، أصدر كلايد بريستوفيتز كتابه الأمة المارقة: النزعة الانفرادية الأمريكية، وفشل النوايا الطيبة» «ليشكل إضافة فكرية متناغمة ومجددة في نقدها لأخطاء النظام الأمريكى وثغراته وسلبياته ونكباته.

فى كتاب «الدولة المارقة: دليل إلى الدولة العظمى الوحيدة فى العالم» قدم وليم بلام إدانة إنسانية وحضارية وثقافية صارخة للدولة العظمى الوحيدة فى عالم اليوم الزاخر بكل الغرائب والأوضاع المقلوبة. فكل صفحة فيه كفيلة بوضع ملف مكتظ بالتجاوزات والانحرافات الأمريكية فى دول بلا حصر، على مكتب أمين عام الأمم المتحدة للتحقيق فيه، ومن ثم عرض الأمر برمته على مجلس الأمن ليتخذ قرارًا ما. لكن الولايات المتحدة تدرك تمامًا أن هذا لن يحدث لأن الأمم المتحدة برمتها تقع تحت رحمتها، يكفى مثلاً أن تتوقف عن دفع نصيبها في ميزانية المنظمة الدولية لتنهار تمامًا، أما مجلس الأمن فهى تعتبره مجرد قسم من أقسام وزارة الخارجية الأمريكية.

وكانت المرحلة المفصلية فى العقد الأخير من القرن العشرين موضوعًا مثيرًا وحساسًا وخصبًا ومغريًا للإمبراطورية الجديدة بأن تكون أقوى وأكثر وأخطر دولة مارقة فى التاريخ؛ لسهولة تبادل الأدوار بين الدولة الجبارة الباطشة وبين الدول المستضعفة، التى قد يصور لها حمامها الأجوف قدرتها على التصدى للموارد الأسطورى، مثلما فعل صدام حسين الذى انتهى نهاية مأسوية، وأصبح العراق فى مهب عاصفة لا تهدأ من الخارج أو الداخل، ولا أحد يعرف أى مصير في انتظاره. وكان هدف بلام الاستراتيجى من كتابه هو تحويل الأنظار عن الدول البائسة التى تسميها الولايات المتحدة دولاً مارقة، إلى الدولة المارقة الكبرى التى وقع العالم بين مخالبها، ولا أحد يدرك مصيره حتى فى المستقبل القريب.

أما المؤرخ الأمريكي المعاصر هاورد زن، فكان رائدًا ثوريًا فى تغيير منهج كتابة تاريخ الولايات المتحدة الذى اقتصر منذ إنشاء الدولة الأمريكية على تسجيل الأحداث الرسمية المرتبطة بالرؤساء والقادة والطبقة الأرستقراطية الثرية التى ينتمون إليها. وكان زن قد بدأ حياته العملية من الطبقة الشعبية الكادحة التى أهلمها المجتمع الأمريكي، فظلت رهينة قاعة، وكرس لها حياته العلمية والفكرية والثقافية بحيث نجح بأن يطفو بقضاياها ومحنها ومآسيها على سطح المجتمع، من خلال دراسته وكتاباته وكتبه الموسوعية التى يأتى فى مقدمتها كتاب «تاريخ شعب الولايات المتحدة: من عام ١٤٩٢ إلى الآن» الصادر عام ٢٠٠٥ . وكان من الطبيعي أن يكون كاتبًا ومفكرًا ثوريًا ويساريًا، ألقى الأضواء الساطعة على الجانب المظلم من القمر الأمريكى، الذى أصاب الكثيرين من البشر فى أرجاء المعمورة بهوس لم يشف منه

معظمهم. وكانت المواقف والصراعات والمآسى التى رصدها هاورد زن وحللها وفحصها بمثابة مشاهد متتالية لكوابيس، لا تزال جاثمة على كاهل الطبقات المطحونة. كما أنه يؤكد ضرورة أن يوازن تاريخ الشعوب تاريخ الحكومات أو السلطات التى احتكرت التاريخ لنفسها عبرالعصور، ولذلك فهو لا يركز عليها بل إنه لا يحترمها؛ لأنها تعمل من أجل مصالحها وأهدافها أكثر من اهتمامها بالشعوب التى أوصلتها إلى هذه القمة، وفى الوقت نفسه يجل كثيرًا من الحركات، التى قامت بها الشعوب لمقاومة المحاولات الرسمية لإهدار كيانها.

ونظرًا لأن كل شهادات ومراجع هذا الكتاب «التيار الثورى فى السياسة الأمريكية» من تأليف كتاب ومفكرين أمريكيين كبار كانوا شاهدين من أهلها، فإن أحدًا من المهووسين بالحلم أو الوهم الأمريكى الكاذب، لا يستطيع أن يتهم مؤلفه بكراهية أمريكا وخاصة أنه ابن للثقافة الأمريكية منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وقام بتدريس الأدب والفكر الأمريكى سواء فى الجامعات المصرية أو العربية أو البريطانية أو الأمريكية، التى ألقى فيها محاضرات فى برنامج الدراسات المقارنة بين الثقافة الأمريكية والثقافة العربية سواء فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بدعوة كريمة من الرائد العظيم ناعوم تشومسكى، أو فى جامعة بوسطن بدعوة كريمة أيضًا من المفكر الثورى الكبير هاورد زن، وكان من الطبيعى أن يفرد لهما فصلين فى هذا الكتاب. وكان الترحيب العلمى الرائع الذى لقيه المؤلف سواء من الزملاء أوالطلبة الأمريكيين، أكبر دافع لتأليفه كتابيه: «الحكومة الخفية فى السياسة الأمريكية»، و«تشريح الفكر الأمريكى». وفى آخر السبعينيات من القرن الماضى، كان قد أصدر أضخم موسوعة بالعربية بعنوان «موسوعة أدباء أمريكا»، وهى التى فتحت له باب المجال الأكاديمى الأمريكى منذ ذلك الحين. أما هذا الكتاب فلم يفعل فيه المؤلف سوى ما فعله أقرانه الذين استشهد بهم.

د. نبيل راغب **المهندسين ١ أكتوبر ٢٠٠٩**